المدارس الجغرافية الحديثة

أخذ الفكر الجغرافي يتخذ طابع التحديد والتوضيح وبيان الاهداف منذ اوائل القرن التاسع عشر، اذ ان كتاب القرنين السابع عشر والثامن عشر لم يحاولوا أو ربما لم يستطيعوا وضع مفهوم جغرافي، يتضح من خلاله هدف يحدد معالم الطريق لكل مشتغل في الحقل الجغرافي[1]. ولهذا اقتصرت قيمة الجغرافية في نظر الناس على قدر ما تلقيه من ضوء على احداث التاريخ، وعلى قدر ما تقدمه من معونة للقائمين بالحكم، وفي هذا الارتباط بين التاريخ والجغرافية واجهت الجغرافية مهام جديدة وازدادت مادتها العلمية يوما بعد يوم، ولكن مالبثت الجغرافية ان كسرت الطوق الذي يربطها بالتاريخ واحتلت مكانها اللائق بها كعلم مستقل.

واول الخطوات التي خطتها الجغرافية تحديد الهدف الذي يلتزم به الباحث الجغرافي لاثبات ذاتية المعرفة واستقلالها والرقي بها الى العلم الاصولي. وفي هذه المرحلة تمكنت المعرفة الجغرافية من تحديد هدفها القائم على اساس ايجاد الحدود الطبيعية للعالم ونبذ الفكرة التي كانت شائعة آنذاك وهي التقسيم القائم على اساس الوحدات السياسية نظرا لما يطرأ عليها من تغيرات سريعة ولكونها لا تستند على

---

(١) محمد علي عمر الفرا، اتجاهات الفكر الجغرافي الحديث المعاصر، ص ٧، العدد ٤٩. شركة المطبعة العصرية ومكتباتها ـ الكويت ١٩٨٣

اسس علمية وفي اوائل القرن التاسع عشر ركزت المعرفة الجغرافية على الجوانب الطبيعية الا ان المفهوم الطبيعي للدراسة الجغرافية لم يكن يستبعد الانسان عن مجال الدراسة والبحث ، وجرى التأكيد على الجوانب الطبيعية وبذلت محاولات عديدة لايجاد ظواهر طبيعية من شأنها التعويض عن الحدود السياسية لتتخذ اساسا لدراسة الجوانب الجغرافية ، وقد تحققت نتائج تلك المحاولات عندما وجدوا ان الخطوط الجبلية المتصلة تمثل حدود طبيعية يمكن ان تغني عن الحدود المتغيرة التي يقيمها الانسان للوحدات السياسية .

وبعد هذا التحول في دراسة الجغرافية من الوحدات السياسية الى الحدود الطبيعية حدث تطور جديد تمثل في دراسة مناطق تشمل عدة مظاهر طبيعية بين المناطق الجبلية والهضبية والسهلية ، فكان التقسيم القائم على اساس دراسة القارات ومنها قارة اوربا بعد تقسيمها الى اجزاء تمثلت في دراسة اشباه الجزر مثل ايبريا أو المناطق البلطيقية أو الكرباتية أو الالبية . ثم تلت تلك المرحلة مرحلة اخرى تمثلت في دراسة الجغرافية القائمة على اساس تقسيم العالم الى ـ بقاع ـ أو اقاليم طبيعية متخذين من احواض الانهار اساسا لذلك التقسيم ، مع التأكيد على دراسة ما يتوفر في تلك الاحواض من نبات وحيوان وانسان[1] .

وكان صاحب هذه الفكرة (هومابر) ـ مؤلف كتاب ـ الجغرافية البحتة لاوربا سنة ١٨١٠ قد تخلص تماما من فكرة الحدود السياسية .

ويمكن القول انه في هذه المرحلة دخل البحث الجغرافي مرحلة جديدة ، تمثلت في ادخال الجوانب العلمية في مجال علم الجغرافية ، تمثلت فيما قدمه (فورستر) للجغرافية عن طريق استخدامه المعلومات التي جمعها من خلال رحلاته والتي قام بترتيبها وتبويبها ، وقد شملت الارض والماء والجو والكائنات العضوية من حيوان ونبات ثم النوع البشري .

وهو من اوائل الذين سعوا الى تفسير العلاقة الوثيقة بين الانسان وبيئته ، وقد خطت المعرفة الجغرافية قبل ذلك خطوة نحو الامام في اواخر القرن الثامن عشر عندما اهتم الفيلسوف الالماني (ايمانويل كانت) بالجانب الفلسفي للجغرافية ، وتعريفه للجغرافية وعلاقتها بالعلوم الطبيعية وقد حدد كانت فروع الجغرافية على النمط الآتي :

---

(١) جريفث تيلور ، الجغرافية في القرن العشرين ، ص ٥٣ . ترجمة الدكتور محمد السيد غلاب محمد مرسي ابو الليل . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٧٤

١. الجغرافية الرياضية، وهي التي تدرس شكل الارض وحجمها وحركتها وموضعها في المجموعة الشمسية.
٢. الجغرافية الاجتماعية، وهي التي تدرس العادات المختلفة والصفات التي تتصف بها الجماعات.
٣. الجغرافية السياسية، وتدرس العلاقات بين الوحدات السياسية والبيئات الطبيعية التي تقع فيها تلك الوحدات.
٤. الجغرافية التجارية، وتبحث في الاسباب التي تجعل في بعض الاقطار وفرة زائدة في بعض السلع وفي بعضها نقصا شديدا.
٥. الجغرافية الدينية، وتدرس التغيرات التي تطرأ على المباديء الدينية في مختلف البيئات(١)

وفي خلال الربع الاول من القرن التاسع عشر دخلت الجغرافية مرحلة جديدة من حيث الاسلوب والموضوع.

ويمكن اعتبار آراء كل من همبولت وريتر حول الجغرافية صورة حقيقية تمثل تلك المرحلة، فقد قاما بتطوير الافكار والمفاهيم النظرية والجغرافية التي كانت سائدة في اواخر القرن الثامن عشر وتحويلها الى حقائق وكان منهجها تجريبيا (Empirical) واستقرائيا ((Lnductive)) أما من حيث الشمول، فقد جمع الفكر الجغرافي في هذه المرحلة بين الجغرافية الاقليمية والجغرافية العامة. كما اكد الفكر الجغرافي على كون التجربة هي الاساس في بناء المعرفة اكثر من كونها تعتمد على الاستقلال الذي يستمد اصوله من الاسس العقلية. وقد برز في هذا المجال التأكيد على الدراسات العلمية في مجال البحث الجغرافي، وريتر اول من عارض ما كان يطلق عليه بالجغرافيا النظرية أو المكتبية والتي تعتمد على قراءة الكتب في المكتبة وعلى كرسي مريح، ولا تتطلب الخروج الى الميدان وملاحظة الظاهرات.

وقد اتخذ المظاهر غير البشرية لتساعده في دراسته الانسانية التي كانت مثار اهتمامه. وفي هذه المرحلة برزت وجهات نظر متباينة في مجال البحث الجغرافي وخاصة في طبيعة المنهج الذي يجب ان تتبعه الجغرافية، فكان البعض يميل نحو الجغرافية الاقليمية ومنهم ريتر والبعض الاخر يرى في الجغرافية العلم الذي يجب ان يشمل جميع ما في الكرة الارضية.

والمتتبع لكتابات ريتر والتي تعتبر مثالا لكتابات النصف الاول من القرن التاسع عشر يستنتج فكرتان:

---

(١) نفس المصدر، ص ٥٨.

الاولى ـ تقوم على اساس ان وظيفة الجغرافية تقوم على اساس تفسير الاختلافات المكانية لسطح الارض طبيعيا وبشريا ، وهذا النوع من الدراسة لا يحلل الظاهرات منفردة وبمعزل عن غيرها ولكن تبحث وتفسر من حيث ارتباطها مع التوزيعات المكانية الاخرى حتى تتوصل الى شرح التركيب وتصويره وتفسيره .

أما الفكرة الثانية فتربط بالانسان على اساس انه مركز اهتمام الدراسات الجغرافية . وفي الوقت الذي أكد فيه ريتر على الجغرافية الاقليمية ، نرى همبولت يؤكد على الجغرافية العامة وتأكيده نابع من ايمانه بوحدة الطبيعة . ويمكن تفسير ذلك بسبب طبيعة الاسلوب والتجربة التي مر بها كل منهما ، فكثرة التجارب والمشاهدات التي واجهت همبولت ولدت لديه فكرة اوسع من فكرة ريتر كما انها قادته لطبيعة مقارنة الظواهر الجغرافية . مما يؤيد ذلك انه كلما سجل ملاحظة جديدة اجرى موازنة بينها وبين ملاحظاته السابقة التي تتفق معها في النوع مسجلا اوجه التشابه والاختلاف[1] وبجانب ذلك فقد اهتم همبولت باستخدام الرسوم التوضيحية والخرائط وقد اخترع خطوط الحرارة المتساوية لدراسة المناخ المقارن . كما انه استخدم رسم القطاعات العرضية في دراسة التضاريس .

وكان همبولت ايضا اول من قسم المناطق التي ارتادها الى أقاليم نباتية ، وقد طبع خرائط لهذه المناطق في اطلسه الجغرافي الطبيعي عن القارة الجديدة (صدر في ١٨١٤ ـ ١٨١٩) والواقع ان همبولت له الفضل الكبير على الجغرافيين العصريين لانه امدهم بمعظم الرسوم التصويرية التي تجعل دراستهم عملية .[2]

وفي سنة ١٨٥٩ توفي كل من ريتر وهمبولت وبموتهما انتهت مرحلة من مراحل الفكر الجغرافي الذي سادت فيه المثالية باشكال مختلفة وفي نفس السنة نشر داروين كتابه « اصل الانواع » الذي يعتبر بداية لعصر المادية الذي سادت فيه زيادة التأكيد على فكرتي القانون الطبيعي والسببية .

وفي هذا المجال لا يمكن القول بان الجغرافيا دخلت مرحلة الانتكاس بعد وفاة ريتر وهمبولت بسبب خلو الميدان الجغرافي على الرغم من وجود بعض تلاميذ ريتر ـ الا انه في مجال التدريس الجامعي لم يخلق جغرافياً يقوم بالتدريس الامر الذي جعل الجيولوجيون يحلون محل الجغرافيين في تدريس الكثير من المواضيع

---

(١) جريفث تيلور ، ص ٧٦

(٢) نفس المصدر ، ص ٧٨

التي تخص الجغرافية وخاصة في المجال الطبيعي ونخص بالذكر فيه، هذه المرحلة « اوسكار بشل » الذي جاءت فكرته معارضة لآراء سابقيه .

اضافة الى ظهور التيارات الفكرية والنظريات العلمية التي ذاعت وانتشرت في اوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

وامام هذه النظريات والاراء والانتقادات كان لا بد من ظهور افكار ومواقف جغرافية تبلورت فيما بعد على شكل مدارس ذات اتجاهات فلسفية وفكرية وسياسية . وهذا ان دل على شيء فانما يدل على الدور الذي احتلته الجغرافية في مجال الفكر العلمي عامة ، لان حيوية المعرفة تتمثل في تباين وجهات النظر والبحث عن تحقيق لاثبات ذلك وهنا بحد ذاته اشارة لحيوية الفكر الجغرافي كما سنرى ذلك واضحا من خلال دراستنا للمدارس الجغرافية .

مكتبة احمد للاستنساخ قرب باب الدخول

١ . المدرسة الجغرافية الالمانية

من العرض السابق لنشأة الجغرافية الحديثة اشرنا الى ان الجغرافية الالمانية بعد وفاة اسكندر فون همبولت وكارل ريتر سنة ١٨٥٩ م قد دخلت مرحلة تميزت بالهبوط في مستوى البحث الجغرافي ولكن لم تدم طويلا تلك المرحلة بسبب الجهود العلمية التي بذلها الجغرافيون الالمان الذين اكتسبوا سمعة عالمية امثال (فرديناند وريشتوفن وفريدريك راتزل) والفرد هننز ، وجورج جيرلاند واوتوكريمل واسكندر سوبان والبرخت بنك واوتوشلوز وبشل وغيرهم[١] .

وقد بذل هؤلاء العلماء جهوداً ادت الى الحفاظ على مركز الجغرافية الالمانية والتي تصدرت الفكر الجغرافي العالمي طيلة النصف الاول من القرن التاسع عشر . ويعود الفضل الى جهود عالمين عظيمين هما ، فرديناند فون ، ريشتهوفن (Von Richthofen) وفردريد راتزل ، وقد كان كل منهما عند بدء هذا القرن ، لا يزال نشيطاً عاملاً الا ان فترتهم انحصرت في مطلعه فقد توفي رشتهوفن سنة ١٩٠٤ وتوفي راتزل سنة ١٩٠٥ . ولقد كان تاثيرهما في الجغرافية الالمانية من العمق والاتساع بحيث لا يمكن ان تكتمل دراستها حتى في الوقت الحاضر دون تقويم لدورها[٢]

---

(١) الفرا ، ص ٤٧

(٢) جريفث تيلور ، ص ١٢٧

ونظراً للتداخل الذي قد يحدث في متابعة المدرسة الالمانية ومتابعة مرحلة الجغرافية الحديثة ، فان تقسيم البحث الخاص بالمدرسة الجغرافية الالمانية الى مراحل قد يعطي القاريء نوعاً من التتابع الزمني المبني على وجود بعض الاحداث التي يمكن اعتبارها فواصل بين تلك الوحدات التي تكون بمجموعها فكرة واضحة عن المدرسة الجغرافية الالمانية .

كما اننا سوف نشير الى اهم مميزات المدرسة الالمانية ونوضح تلك المميزات مع ذكر بعض الشخصيات العلمية وخاصة ممن يتفق فكره مع طبيعة المرحلة العلمية .

١ . الفترة المحصورة ما بين ١٩٠٠ ـ ١٩٠٥

تمثل هذه المرحلة مرحلة نضوج الفكر الجغرافي الذي قاده كل من رشتهوفن وراتزل منذ ان انتهت مرحلة همبولت وريتر وكان معهم نخبة مختارة من العلماء الالمان اهتموا بجوانب متعددة ، كعلم البحار والزلازل والجغرافية الطبيعية وعلم المناخ وفي هذه المرحلة اجتذبت الجغرافية اعداداً من الشباب الذين يعدون انفسهم لتولي مناصب القيادة وكان في مقدمة وسائل الاعداد القيام برحلات واسعة ودراسات ميدانية والقيام باصدار العديد من المطبوعات الجغرافية وفي هذه المرحلة تولى العديد من اساتذة الجغرافية مهمة التدريس والقاء المحاضرات في الجامعات كما انهم قاموا بوضع العديد من المؤلفات والدراسات التي تناولت مناطق عديدة من العالم كاليونان واميركا اللاتينية وسيلزيا كما صدرت في هذه المرحلة العديد من الدوريات الجغرافية اضافة الى المجلات الشهرية .

وفي مجال الجانب التربوي والتعليمي فقد اهتمت الجامعات الالمانية بالجغرافية كعلم قائم بنفسه وتم تعيين اساتذة محاضرين له .

والجغرافية في هذه المرحلة ليست علماً عاماً للارض ولكنها علم اقاليم لسطح الارض وتعني عناية اساسية ، بالعلاقات المتبادلة بين الطبيعة والانسان ، فهي تقويم للعلاقات المكانية وهدفها الاساسي دراسة مساحات أو اقاليم ، وتهتم الدراسات الجغرافية بالملاحظة الميدانية ، وامتازت هذه الفترة بازدهار الجغرافية وتقدمها سواء من ناحية التدريس أو من ناحية البحث .

٢ . فترة ماقبل الحرب العالمية الاولى ١٩٠٥ ـ ١٩١٤

ركزت الجغرافية الالمانية تركيزاً كبيراً على الدراسات الطبيعية وجاء ذلك التركيز بسبب تأثير « البرخت بنك » الذي خلف رشتهوفن في جامعة برلين ،

اضافة الى تأثير احد العلماء الامريكان والذي تخرج من جامعة هارفرد وزار برلين بين عامي ١٩٠٨ ـ ١٩٠٩ والذي يدعى موريس ديفز وفي هذه المرحلة اخذت الجغرافية الالمانية تؤكد على الدراسات الميدانية سواء مايتعلق منها بالمانيا أم بالعالم .

فقد توجه العديد من العلماء الالمان الى مناطق متعددة من العالم وقاموا بدراسات ميدانية مثل صحراء كلهاري وشرق افريقية وغينيا الجديدة ومناطق متعددة من العالم ، وقد ركزت تلك الدراسات على دراسة الجوانب الطبيعية كدراسة التضاريس . الجبال ، الهضاب ، ودراسة الاحوال المناخية .

وفي خلال هذه المرحلة اشتد ساعد الجغرافية ، فاصبحت تدرس في معظم الجامعات الالمانية وحتى التقنية منها ، وزاد عدد المحاضرين وشملت الدراسات الاقليمية مناطق متعددة من العالم .

وقد حدث اهتمام كبير بتأهيل الطلاب وكانت الرسائل التي يعدونها تقوم على الملاحظة الميدانية . كما ان الفكر الجغرافي في هذه المرحلة اخذ يتسع وكانت الاجتماعات السنوية للجغرافيين تمثل مظهراً فكرياً ، كما انهم اخذوا يقومون بجولات ورحلات علمية شملت مناطق اوربية وعالمية ، وفي هذه المرحلة زاد عدد المجلات التي تهتم بنشر الابحاث الجغرافية ، كما برزت في هذه المرحلة ، فكرة انتاج الخرائط الجدارية والاطالس الجغرافية ، كما ان مركز الاستاذ الجغرافي الالماني قد برز في هذه المرحلة بقدر اصبحت الدعوات توجه للاساتذة الالمان لزيارة الجامعات الامريكية والقاء المحاضرات .

٣ . فترة الحرب العالمية الاولى

تأثر الفكر الجغرافي الالماني بسبب قيام الحرب ، فقد اقتصر البحث الجغرافي على وصف المناطق التي دارت فيها المعارك العسكرية والمناطق التي احتلتها الجيوش الالمانية ، دون الدخول في مناقشة اسباب الحرب ونتائجها بسبب تأثير الحكومة الالمانية التي منعت الدخول في مناقشة مثل هذه الامور ودعت للتأكيد على انتصار المانيا ، اضافة الى ان الالمان في هذه المرحلة كانوا يركزون على الجوانب الجيمورفولوجية .

وكان لنتائج المعارك الحربية الاثر الكبير على طبيعة البحث الجغرافي ، ففي الايام الاولى للحرب وتوالي الانتصار في خلال السنتين الاوليتين من الحرب اكبر

الاثر على توجه البحث الجغرافي فقد تناول الباحثون طبيعة الحدود السياسية بين المانيا والدول المجاورة لها . وطبيعة االشعب الالماني وعلاقته بالانتصارات والاشارة بوضوح الى طبيعة الموقع الالماني وعلاقته بذلك الانتصار والتمجيد بالعنصر الجرماني وكونه المؤهل لزعامة اوربا والعالم منطلقاً في ذلك من نظرة عنصرية استعلائية .

واستمر تدريس الجغرافية في الجامعات الالمانية دون اختصار كبير ، واستمرت الجامعات تنشر نتائج الدراسات الميدانية التي جرت قبل نشوب الحرب .
واخذت المجلات الجغرافية تنشر الا بحاث التي من شأنها بيان الظروف الجغرافية لجبهات القتال . كالجبهة البولندية ، والجبهة الصربية ، ورومانيا ، وجبهة القوقاز وحملة الدردنيل والبسفور وبقية الجبهات كما تناولت الا بحاث الاقطار التي تدور فيها معارك اوربا .

وقد تكونت بعثات جغرافية تحت اشراف الجامعات الالمانية لتقديم الدراسات المفصلة عن الاقطار التي احتلتها المانيا ، ومن هذه الدراسات ، الدراسة التي تناولت جغرافية بولندا وتقسيمها الى قسمين كما تناولت النبات الطبيعي ودراسة الموارد واهم المدن وقد ظهرت بعض الدراسات الجيدة عن العديد من مناطق اوربا .
وانتهت هذه الحرب بنهاية مفاجئة عندما خسرت المانيا الحرب وتحطمت احلام التوسع واصبح عليها ان تواجه وضعاً جديداً انعكست آثاره على الفكر الجغرافي الالماني .

٤ . فترة مابين الحربين وما بعدها

كان للخسارة العسكرية الاثر الكبير على طبيعة البحث الجغرافي فقد تناولت الا بحاث التي نشرت بعد الحرب وصفاً مراً لطبيعة اتفاقيات الصلح وكونها اتفاقيات املتها قوة المنتصر . ومن الكتاب الذين تناولوا وصف تلك الاتفاقيات ، وكيف انها كانت اتفاقيات جائرة ـ الفريد هتنر ـ الذي نشر مقاله بعنوان ـ السلم والجغرافية السياسية ـ أنتقد معاهدة الصلح التي عقدت في فرساي ، ووصفها بانها ادت الى تمزيق المانيا .

واستمرت الا بحاث الجغرافية التي نشرت بعد الحرب العالمية الاولى مباشرة تشير الى احساس الالمان بمرارة الخسارة ، والدعوة الى ضرورة العمل لاعادة المانيا ، والتأكيد على الاجزاء التي اقتطعت منها بموجب معاهدة الصلح والاشارة الى الاقليات الالمانية في كل من بولندة ورومانيا .

وفي سنة ١٩٢٤ أنشأ كارل هاوسهوفر ((K. Haushover)) مجلة الجيوبولبيكا التي اعتبرت الابحاث التي نشرت فيها تمثل فكرة الحزب النازي وقد استخدمت في سبيل ذلك آراء الكاتب السويدي كانت والخبير الامريكي في القوة البحرية ماهان (Mahan)، والجغرافي الانكليزي ماكندر ((Mackinder)) والذي اشتهر بنظرية (قلب الارض) «The Hearth Land»(١).

واستمرت الدراسات الجغرافية في مسارها الا انها كانت محدودة وخاصة في مجال الابحاث الميدانية، وركزت على الابحاث التي من شأنها اعادة الثقة الى الالمان الامر الذي ساعد على ان تدب الحياة في الجغرافية الالمانية من جديد وقد تمثلت بصورة جلية في عقد الاجتماعات الجغرافية التي من شأنها اعادة بناء الفكر الجغرافي الالماني.

فقد عقد اجتماع في لايبزك سنة ١٩٢١ وعقد اجتماع ثاني في برزلاو سنة ١٩٢٥ والذي يمثل بداية مرحلة جديدة، فقد انتهت الازمات المالية واخذت المساعدات المالية تقدم للابحاث الجغرافية واخذت الحكومة تشجع الابحاث الميدانية وعاد الاختصاصيون لاختصاصهم، كما عاد الكثير من المفكرين الجغرافيين الى المانيا. وبعد ذلك جاءت مرحلة جديدة شملت مناقشة اهداف الجغرافية ومناهج البحث فيها وطرق عرضها، وكان من نتائج ذلك ان اخذت الجغرافية الطبيعية تفقد مركزها بسبب اتجاه البحث نحو الدراسة الاقليمية مع التأكيد على العنصر الانساني وفي الوقت نفسه التأكيد على النظرة الكلية لجغرافية الاقليم من جميع النواحي(١)

وقد اتجهت الابحاث الجغرافية نحو دراسة الجغرافية السياسية والتأكيد على مقومات القوة ومقارنة ذلك مع ما احتلته المانيا من مقومات القوة. وقد زاد عدد الطلبة الدارسين لموضوع الجغرافية وخاصة طلبة الدراسات العليا.

ولكن مالبثت هذه النهضة الجغرافية الالمانية ان تأخذ مكانها حتى اصيبت بنكسة عندما جاء هتلر الى الحكم.

وقد خاض الجغرافيون الالمان ومعظمهم من غير النازيين، معركة انسجموا فيها بانتظام أمام تقدم السيطرة الحكومية.

---

(١) نفس المصدر، ص ١٤٢